الباب العاشر

مساحة فراغ

المقال الأول
ترميم جدار الملح فى بناء الضمير

جلست على أريكة قديمة، يتناثر الغبار من حولها أريد أن أتنفس ولو قليلا بعد ما أنهكنى المسير، وأنهكتنى خطوات الألف ميل، وكأن الخطوة لا ترغب أن تفارق القدم، رأيت حولى كثيرا من عمال البناء، وأصواتا متناثرة لا تصل إلى أذنى ضعيفة السمع، ولا إلى نظارتى القديمة، التى أحتفظ بها فى شنطتى المعلقة على كتفى والمصنوعة من القماش والجلد، ، تحولت كل الهواجس بداخلى إلى لحظة ما عدت أعرف هل أفكر كما كنت أفكر أم أصابتنى البلاهة الذهنية؟ فقلت: ما لى ونفسى، فدع نفسك تتكلم مع ذاتها، قلت حين رأيت العمالة الكثيرة، منهم من يخلط الماء بالطين ليعمل عجينة بناء، لقد شاهدت جدارا عليه كلمة حاولت أن أقرأها فلم أستطع، ورأيت فريقا آخر يأخذ فى يديه قماشا لونه أبيض، يشابه الدانتيلا البيضاء المزركشة، وتعجبت من علاقة ما يفعلون، فحاولت أن أقترب من المكان أكثر علنى أفهم ما يحدث ؟

سألت أحد العاملين، حين اقترب منى لم أتخيل أنه طفل صغير ولكن اشتد عوده فارعا فظهر بغير سنه الحقيقى، فقال لى يا عم نحن أطفال ولبسنا أحذية طويلة، حتى نتمكن من العمل فى ترميم هذا الجدار، فلقد بناه أبى وجدى، و ها نحن نحاول ترميميه فإن للذكرى عندنا ولاء لهذا الجدار، وقد حكى لى جدى قصة أن تحت الجدار كنز كبير، فقلت له وهل تبحث عن الكنز أم تبحث فى ترميم الجدار، فقال يا عم إننى ابحث عن ترميم جدار الظل، إنهم يصنعون خلطة مكونة من الطين والملح، وهناك ثوب من قماش التل و الدانتيلا يحاولون تغطية الجدار به بعد الترميم، يريدون كسوة هذا المكان باللون الأبيض، ليجعلوه تذكارا أثريا، فهم يقومون كما ترى بترميميه من حبات الرمل والطين والملح، قال: يا عم ألا ترى من يقف أعلى الجدار،

ويمد خيطا؟ فقلت له: نعم، قال لى: بدون هذا الخيط لا يكتمل البناء، فقلت: إننى لا أعلم كثيرا عن علوم البناء ولكن لى من الأبناء من تعلم فنون البناء، وخلال محادثتى السريعة مع الطفل الصغير الذى وضعوه فى قالب قدم يغير الحقيقة، سمعت أصواتا كثيرة، لم افهم من هذه الهمهمة أو التمتمة غير قصعة، وناولنى المسطرين، وسمعت كلمة القدة، ميزان الخيط، وميزان المياه، والعرموس. فقلت: مالى أنا وكل هذا، أنا أريد أن أستظل فى المكان، والمكان يعج بالحركة، ولا يوجد أى مكان أستظل به، فقال: يا عم استظل هناك بعيدا عن مكان العمل، فقلت يا بنى أنا رجل عجوز أنهكتنى مسافة السفر والرحيل وقررت العودة، فأشاروا لى على هذا العنوان الذى يعج به العمل على قدم وساق، ولكن سألت المسئول هل لى من مكان فى هذا المبنى قال لى انتظر حتى نفرغ من تزيينه وافتتاحه، فقلت: كم يستغرق الوقت؟ قال: ساعات حتى ننتهى من الزينة ونقوم بالافتتاح.

لقد رأيت عجبا رغم أننى لا أفهم فى البناء، فوجدت خلطة الرمل والطين والملح غير متساوية، المهم أن ينتهى الترميم و إعادة الهيكل، جلست وحدى أستعيد ذاكرتى، وتذكرت كيف بنينا بيتنا القديم، وسألت نفسي: لماذا الكل يهتم بهذا الجدار ألانه فى مدخل المدينة، أم أن مسئولا كبيرا سيقوم بافتتاحه؟ وهل سيكون من نصيبنا طوبة منه أو حتى ظل يمتد، يمكن أن نستظل به؟

عجبت داخل نفسى حين وجدت شريط ذكرياتى يراق الدم منه على أرض غادرت منها قسرا أو قهرا أو رغبة لا أدري، أخذت دمعة العجوز تنساب على جفن انتفخ من رماد السنين وكأنه يعانق صدر اليأس، فكم يؤلمنى أن الأقنعة باتت كثيرة وكأنها حقيقة، فكيف نرمم جدارا بالملح، هل قناع الملح يغطى وجه الحقيقة بأقمشة التل و الدانتيلا؟ إن تزيين الحوائط بأقمشة مزيفة لن يخفى ما خلف الحوائط من زيف كبير، فكثير من اللوحات مزينة بألوان الزيف من أعين صدقت و ما كذب القلب.

وسط هذا الصخب رأيتهم يفرشون الحائط بقماش يغطى جوانب الحائط وبسرعة سمعت صافرات الاستقبال، وإذ بى أرى من بعيد رتلا من السيارات،

إنها زيارة رجل مهم، فقلت فى نفسى، متمنيا أن يسقط المطر حتى يطفئ هذا الحر واللهيب، وتذكرت قول الله **{وأنزلنا من السماء ماء طهورا}** فدعوت ربى، فإذا بالسماء تتلبد فجأة ويسقط المطر، وتحدث المفاجأة التى لم أكن أتوقعها، لقد بدا الجدار يتشقق، وتوسخ قماش التل الأبيض، فقد أذاب المطر الملح، لقد طهر الماء هذا الجدار حتى أنى لاحظت أنه ينهار، اجتمع كثير من البنائين، بعضهم نادم على ما قام به، وبعضهم يفر مسرعا بما تحمل يده، والتقاط ما خف حمله وعلا شأنه، ما هذا نحن نعود للوراء، رغم امتداد أسهم المطر وسقوطها، ولكنها تتطهر، نعم إنه الماء الطهور الذى نحن فى انتظاره، وفى لحظة واحدة رأيت الأطفال والشباب الصغار يعقدون العزم على إعادة البناء، فقلت فى نفسى: إن ترميم جدار الملح فى بناء الضمير هو ميزان البناء فللحق وجه واحد، فإن أكياس الضمائر المعبئة بالملح الفاسد لن تصمد أمام الماء الطهور، ومواساة الجروح لا يفيد منها غير الضمير فاستفت قلبك فى كل شيء، واعلم أن «الإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدور وإن أفتاك المفتون»، إنه مهما حاولنا إخفاء العيوب، أو إغلاق العيون المبصرة، فإن عدالة السماء قادمة، **{بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون}. الأنبياء ١٨.**

المقال الثانى
تجرنا لعبة الأبواق

حوار بين البشر :

من خلال المطالعة فى كثير من الأمور سواء كانت مرئية أو منشوره، رأيت تمسكا شديدا من أغلب الأطراف فى حواراتهم، وإن كل شخص هو بطل المسرحية، ولا يوجد غير رأيه، أى لا يتقبل أحد أحدا، إنها عدوى الكره، ولماذا لأننا ننظر فى يد الغير، لا ننظر فى مبدأ العطاء للغير، هل وصلنا إلى حد التعصب، هل أصيبت العقول بصدمة الانغلاق، أم أن تعريض الفكر فى صندوق العقول لا يتحمل كل أمر مغاير لما هو عليه؟ إنها معضلة، فقد صمت الأذان حولنا، ولم لا نحاول؟ ويقولون تكلم حتى أراك فيبدو أن من قرأ العبارة فهمها على إطلاق الكلية فى الحوار، أى دعنى أتكلم كما شئت، هذا جانب، أما الجانب الآخر فهو اكتشاف المقابل للرأى، هل لنا أن نتخيل كيف يكون مظهر الكلام، إن الكلام فى حد ذاته إذا جمعناه فى نسيج راق فهو يشبه الثياب الجميلة التى نزين بها أنفسنا، وماذا ما تبعثرت الكلمات من أفواهنا صارت كالثياب المهلهلة، إنها حروف ننطقها فلنتعلم كيف نزينها فكل فم ينطق بما فِيه، يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أظل أهاب الرجل حتى يتكلم فإن تكلم سقط من عينى.أو رفع نفسه عندى السؤال. إن هذا الإنسان المرقم فى ديوانية الحياة والذى يحمل رقما فى تعداد الكون يحمل لسانا وقلبا، فعندما يتكلم تظهر بواطنه وما يخبئه بقلبه على لسانه، إن القضية تعتمد على تجربة أنفسنا، وتجربة الحوار تحتاج التعلم المدرسى والمنزلى، فنحن لم نتعلم مطلقا لغة الحوار حتى فى أدبياتنا الاجتماعية، نستمع لأنفسنا قبل أن نمكن الغير من الإنصات وإبداء الرأى، وكأن مسرح الحوار صار فرديا وأصبح الآخرون كومبارس الكلام، وما قد يزعج أن ترى أشخاصا على

شاشات الإعلام يتضاربون فيما بينهما، فيا للغباوة، إن مطرقة اللسان الحادة تقع على رؤوسنا من الكلمات المبتذلة التى اعتقد أنك إن سألت شخصا عن معنى أى كلمة ينطقها ربما لا يعرف، إن معادلة التلفظ قد ذكرتها مسبقا، وأعيدها مرة أخرى (اللفظة ذات مدرك، والمدرك إدراك فى السياق، وأمر الإدراك فى السياق استدراك، وان لم يكن الإدراك استدراكا صار استدراجا،) نعم {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}. (الأعراف :١٨٢).

إننى أرى تدريس مادة بالتعليم تعنون بمادة أسس الحوار فى علوم التربية الفكرية، أطرحها على وزراء التعليم أصحاب النظريات والحوارات، لقد استمعت إلى أحد وزراء التعليم، فى حوار على احد الفضائيات، ووصف التعليم والحياة التعليمية، بالحلم الوردى، فتعجبت وأنا أرى الطلبة، يتوجهون فى الشوارع إلى الدروس الخصوصية، إلى مقصلة التعليم التى تستنفد موارد الآباء المطحونين. إنها مأساة التعليم، فإن أردت أن تتعرف على مجتمع وقوته انظر لمناهج التعليم، إن النظريات، فى الكتب صارت عتيقة يتناول الفكر فيها من السمك الفضى كل الأوراق لقد شابت النظريات التى ندرسها، ونحتاج يا سادة إلى تعليم شاب ومتجدد.

إن ما نحن فيه من الانغلاق الفكرى، يعزى إلى ترك القراءة وأمات الكتب والتمعن فيها، أنسينا أن أول آية نزلت على الرسول عليه الصلاة والسلام هى اقرأ بسم ربك الذى خلق، ونسينا التدبر فى الأمر قبل أن نملأ به اللسان، قد أمر الله – عزَّ وجلَّ – بتدبُّر القرآن وآياته فى كثير من آيات القرآن ومن ذلك: **{أفلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَ}.الروم: ٢٤{أفلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}.النساء: ٨٢((أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ}المؤمنون: ٦٨)**، إن التدبر هو النظر فى عواقب الأمور وما تؤول إليه، انه تفكير شمولى إلى دلالات الكلمات ومراميها البعيدة وهذا لا يتأتى إلا باستخدام (قاعدة ٤ ت) والتى قمت بإلقاء محاضرة عنها فى مهارات التواصل وهى تتلخص فى (تنصت، ترى، تفكر، تنطق) – د. جمال جمعة ٢٠٠٧ – من محاضرة مهارة الاتصال.

فعلينا أن ننصت، لنرى، ثم نفكر، ثم ننطق، ولكن الغالبية تطبق القاعدة التالية، تنطق دون أن تفكر دون أن ترى دون أن تنصت، يسبق اللسان العقل

فتتوه الكلمات فى رداء مهلهل، وإذا ما تتبعنا القاعدة فى أساسها سيكون لدينا رداء مزينا. إن عدم التدبر، وعدم تقبل آراء الآخرين، يخلق مجتمع الكراهة، وليس مجتمع الحب والفضيلة، وإن التطرف والمغالاة وإخماد الأصوات والقمع بها لهى من أمور عدم التدبر، إنه إرهاب الفكر المغلوط الذى لا يعطى مساحة من حرية الرأى الحقيقى. فلنتعلم من البداية، ولنسقط من حياتنا ثلاثين عاما لنعرف كم عمرنا الحقيقى فى الفكر، علينا أن نصنع أجيالا تجيد الإصغاء، حتى لا نرى جيوش الإرهاب الفكرى والتطرف.

المقال الثالث
ها أنا أحبك فى مارس

أرى بعينى، أسمع بأذنى، أتحرك بقدمى، خلت منى الرؤى، فصم عنى السمع و تثاقلت أركان الحركة والحس فانهار داخلى، إنه جدار النفس، إنها مشقة الاختيار الواعى فى ضبط النفس، بكيت كثيرا فى مهدى، فأسرعت فى خفة لا تقارن، يعصرنى البكاء، راغبا فى وجبة، فتسرع تقدم ثدييها، رغم جوعها، فتطعمنى، أتعثر فى حركتى، فتهرول ساندة يدى، و قدمىَّ إلى الأمام، إنها تعلمنى كيف أسير، إنها مملكتى، حصنى الحصين، وكأنها أكبر من سور الصين العظيم، إنها ذات قوة، عفية، طاغية، تحمل بداخلها كثيرا من الجبروت، تهدهدنى حتى الموت، فلا تقولى لمَّ أحبك، فأنا وليد بطنك، لا تقولى لمَّ أحبك، فأنت من أرضعت طفلك، فَلا تقولى لمَّ أحبك، بأقدامى إليك تعلمَت من ودك، لا تقولى لمَّ لم أحبك؟ فأنت أنثى تَحمل ألقابا، فى أطر متباينة، نعم أنثى الأم، أنثَى الحبيبة، أنثى الشقيقة، تنوعت الأسماء والأصل فيك واحد، لا تقولى يا سيدتى لمَّ لم أحبك، فأنت هو أنت خلقت الدنيا إليك، فمن يقول يا سيدتى أنى احَبك فى مارس فقط، إنى أحبك فى كل شهور العام مارس، لقد ازدادت الوحشة فى داخلى يا سيدتى، فقد خلا الفضاء حولى، فأرى بعينى خواء يطغى على العين فتغشى، تزداد دقات القلب يا سيدتى، تخمرنى الأفكار، أجرى هنا وهناك، وكأننى أبحث عن بئر زمزم، فأبحث عمن يؤنسنى، فنظرت لسمائى، ودعوت ربى، دعاء استجابة، فجاءت الإجابة، فتحرك جانبى، يسراى تتحرك، تتمدد، فغفوت، أحلم بعالم جديد، وتيقظت فى لحظة لا تقارن فى وصف، فرأيت جمالا لا يوصف، من هذه؟ ما هذا المخلوق، جاء يؤنسنى، فلا تقولى يوما لمَّ أحبك؟ **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ**

يَتَفَكَّرُونَ}. (الروم: ٢١)، نعم هى منزلتك فى القلوب، فأنت عطية من الله، فكيف لا أحبك، فلا تقولى لمَ لا أحبك، إنها النصف، ورغم كونها نصفا فى نصف، أو نصفا من نصف إلاَ أنها منتجة، إنها مصنع الرجال ذاته فى مهدهم رغم شدة آلام الولادة ومشقة التربية – **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}٣ سورة البلد**، نعم وجودك يا سيدتى يبعد الوحشة ويخلق الرجال ويبنى الحياة وبدونك ما نقف على أرجلنا أو نتعلم، يؤكد الباحثون فى مجال علم النفس على أهمية أن يكون للرجل زوجة ويقولون إن وجود زوجة بقربه دائماً سوف تخفف التوتر النفسى بشكل كبير وتخفف القلق والإحباط. وفى دراسة حديثة وجدوا أن الرجل عندما يسافر وبخاصة سفراً متكرراً من أجل العمل أو التجارة أو الدراسة، فإن احتمال أن يُصاب بأمراض القلب تنخفض جداً عندما يكون بصحبة زوجته، نعم إنها معنى المودة والرحمة، كم أنت عظيمة فى الجوار، وأعظم حين يكون الزوج خارج الديار، ترعين صغارا، وبنين نشء، كم تعيشين فى معاناة، إنها القوة الحقيقة للمجتمع، فإن قويت المرأة قوى مجتمعها، وان خرجت خارج حدودها الطبيعية، تغير فينا الكثير، إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الحياة بنظام يعتمد على المقاومة البيولوجية، فالكل على طبيعته التى خلق من أجلها، فإن قمنا بتغيير هذه المهام بدعوى حجج رخيصة، فسوف يتغير كل شيء حولنا، فإنى أحبك ليس حبا مشروطا كما يحدث الآن، إنه حب لا يوصف، فكونى خير النساء، إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطعتك، و إذا أقسمت عليها أبرتك، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك وولدك، نعم أنت الملك المتوج بالتاج المخوص بالذهب، أبعد هذا تقولين لم أنا أحبك؟ هو أنت يا سيدتى عليك عبء كبير، فأعلمى هذا، أنت يا أعظَم خلق الله، أقول لك: لا تضيعى دورك فى الدنيا لتفوزين بالآخرة فلا تكونى مثل الحمل الثقيل على الشيخ الكبير، وعودى لحظيرة النساء، إن المسئولية عليك كبيرة، أنت من يعزف اللحن، والباقون راقصون، أنت من تمدين يد العطف والباقون بك يهنئون، فأنت تحت أقدامك الجنة، أرضعتنى طفلا، وحفظتنى رجلا، ألا تستحقين فى يومك أن أقول لك: إنى أحبك.

المقال الرابع
لا تسلنى

تخمرت الكلمات بالفم، فامتلأت بفقاقيع الهواء، ابتلعت منها ما ابتلعت، وتغرغر منها ما غرغر، ولم ما بالفم من بقايا، كيف نهضم المعنى حين تفرز إنزيمات الحب والكره معا فى وعاء واحد، كيف نفسر ذلك، وكيف نفصل بينهما، لقد زادت فقاعات الثرثرة أكثر من الماء العذب المجلى ليزيح هذه الثرثرة.

كيف تسألنى لم لا أحبك، وأنت ترين حولنا فقاعات الفتنة، تترصد فى ذرات الهواء المحيطة، تفسرها كيفما شاءت، فتتربص بنا، إنهم يحملون ما يرغبون فى نفوسهم بغير مراد فى قرين يدل على حقيقة أمر هم راغبون، إنها النوايا المخفية المترصدة لكل ما نريده.

لقد تناطحت فقاعات الفتنة فيما بيننا، تتحرك كفقاعات صابون ننفث فيها، إنها الفقاعات الفكرية والتى بدت بين عموم الناس من انتقادات واتهامات متبادلة ليس على أساس سليم، إنها من أجندة التأويل المستطرد، لقد أصبح أمامنا معضلة كبرى فى التأويل، فالكل يقوم بتأويل نص الفقاعة إلى ما يحلو له فأصبح مسرح الحياة ليس رقصا غير متجانس، إنه الرقص الفكرى الشاذ على مسرح التأويل المزوج بعبارات تؤكد صحة ما نقول، إنها المغالطة فى السرد الناقص فى الحوار المفقود فى مقال ليس به أى جملة خبرية إنه الفكر المنقوص فى باب التأويل المزوج بفقاعات الهواء الفكرى.

إننا فى محنة هى محنة التشويش الفكرى، التى باعدتنا، والتى أكرهتنا على تغيير مفاهيمنا وعقائدنا، انه أسلوب الجرجرة لخلع ثيابنا فنظهر عراة، فى أقبح صورة، تزاد من حولها الفقاعات المخمرة والأبواق المخمورة، المزانة ببكتريا العفن الفكرى، إن المبررات العقلية والحجج الفلسفية قد لا تستند على

فرضيه منطقيه، فنصدق ما هو كاذب، ونكذب ما هو صادق. إنها فقاقيع الفكر المفعولة بنا من خلال الأبواق السامة فتنازعنا فيما بيننا، وكرهنا ما نحب، وأحببنا ما نكره، فتغيرت سنن طبيعتنا.

إن المفاهيم التى تدعو لاستقصاء العقل من خلال فقاقيع شاذة الفكر، تحمل فى طياتها السم من خلال ألسنة لا تعرف معنى ما تقول، إننا فى عصر ربما أقصى من مسيلمة الكذاب، أو أننا فى زمن الدجال فلندقق فيما نرى وما نسمع، فإن سوء الفهم رغم وجود نص لهو أمر مخز، فلا اجتهاد فى نص، لقد أهملنا ذاتنا وحضاراتنا واتجهنا إلى ارتداء الغير وما نحن كالغير، فلكل أمة ثقافتها ولباسها، لقد خرجنا من الخندق، ومن خرج من خندقه تصيده البادى والرصاص، فلنحافظ على خندقنا فى السلوك والقيم و المبادئ ولا تسلنى لم لا أحبك ؟

فلنتذكر قول الله تعالى فى سورة آل عمران آية رقم ٧:

{هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}.

المقال الخامس
كثير من الغضب

هل فى أنفسنا غضب كبير حين نحب؟ هل لأننا ننتظر ممن نحب مقابلا للعطاء؟ إن القلوب المبنية على انتظار المقابل لهى قلوب تعمل فى حساب المتاجرة بالأرقام، فالحب عطاء بلا انتظار. إن الغضب منه قد يكون مقبولا فى لحظات الغياب ولكنه من النوع المتعجل فربما يكون للغياب سبب، وإن أشد الغضب هو غضب العتاب المعكوس على مدى الشفافية داخلنا، فيكون العتاب أعمى لأنه متعجل لفهم الحقيقة، وإن تقديم الأعذار غير المنطقية تبعث شكا فى الصدور، سواء كانت أعذارا ملفقة أو كاذبة، فلعنة على كذب اللسان، ولعنه على الغياب غير المأمون .

إن الغضب له دوافعه، فالغضب ليس هو المشكلة ولكن نتائج الغضب هى الأكثر فتكا على الأطفال حين يرون الغضب بين جناحى البيت من أب يثور وأم تبكى، فما هو واقع الثورة والبكاء على الصغار؟ إن الغضب ينحرنا فتسيل منا الدماء ونصبح ذبيحة الشك والقلق والهموم، وعواقب الغضب أشد خطرا من أسباب الغضب ذاته، ولا يطفئ الغضب إلا الصدق، والحوار المتيم بالحب.

إن إحساس المرء بالغضب، هو الإحساس بشعور أن هناك ضررا قد يلحق بنا أو إهانة من الغير، وكلنا مصابون بهذا الداء، وعلينا أن نتدرب على كيفية الإقلاع عليه، وهو أمر شاق، ومن الغرابة فى الغضب أنه بعد انتهاء الغضب، والثورة التى تحمل فى كثير من الأحيان خسائر حرب قد ترقى إلى مصابين وربما إلى أموات، فعند الغضب يتملكنا الشيطان ويعصف بنا، إن عدم التدريب على فن الإنصات للآخرين هو بداية الغضب، وهو أمر يحتاج إلى تدريب، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب.

والشخص الغاضب ربما يكون من أكثر الناس ملاحظة، أو يكون من المراقبين الجيدين، لتكرار الأحداث، حين يكون قلبه عامرا بالحب فإن العتاب عنده هو الاستسلام، استسلام للقلوب والمشاعر المتدفقة والتى ربما تعطى دون مقابل، إن الغضب ربما يكون دافعا من الغيرة الموجودة داخل الإنسان، حين تملؤه بعض من الهواجس المزعجة أو سيناريوهات القلق فى الموج الهائج، ويتخيل الأشياء المزعجة فيغضب ويزيد من حنقة الغضب أنه لا يملك سبيلا للاطلاع على الحقيقة المخبأة فى الصدور.

إن المشاعر الزائدة تشعل الإنسان بالحنق والغيرة، وذلك لوجود منطق الذكورة فى حب التملك، وذلك ان كان الحب من النوع المتبادل بين الرجل و المرأة ولأتفه الأسباب، إن الإهمال فى حد ذاته، قد يكون توهما، إذا ما برر بأسباب غير منطقية، فيتحول الإنسان فى لحظة إلى الإحساس بالخيبة لمن كان يتوقع منه الكثير، ودواعى الإهمال تكمن فى دائرة التكرار المتزايد للأحداث المتتالية، عندئذ تلاحظ أن هناك مشاعر قد هاجرت توقعاتك، إن التصورات والهواجس المخيفة تنشأ من خلال رغبتنا فى أن يكون المحب لنا ولنا فقط ولا ينظر إليه الآخرون، وأنه عالمنا الجديد.

إن القضية فى الغضب، مصدره فى وجهة نظرى وليس من الضرورى أن تتفق معى أو لا تتفق فهى وجهة نظر خاصة بحتة، نابع إما عن جهالة تامة أو لشفافية مفرطة، أو رغبة الطرف الأخر فى تحريك المشاعر بشكل مستفز. إن من العوامل التى تزيد من الغضب هو الإحساس بالشك فى تكرار الأحداث، أو التصرفات.

إن الشخصية التى تتأمل التصرفات من قبل الآخرين قد تصل يوما ما إلى الحقيقة، فتكرار أى حدث يصبح متلازمة، فعادة، فلسلوك، فمظهر، فصفة، ويصبح تصرفا يرتبط بالسلوك، إن كثيرا من الأشخاص يغير من خطواته، ولا يعبأ بالآخرين حين يبحث عن منفعته الخاصة غير مدرك لمشاعر الآخرين وعواطفهم دون أدنى اكتراث. إن الحب هو الإكسير الوحيد الذى يحول الغضب إلى كلمات مقبولة نهضمها فى خضم الزيت المغلى المتساقط من الألسنة على شفاه الآخرين.

فالحب دوما يبنى بداخلنا أسطورة تنقلنا إلى عالم آخر نطمع فيه، إن الحب قد يفرض علينا الأنانية فى لحظات كثيرة و قد تكون قيدا على رقاب الآخرين أو على أنفسنا، إن الحب هو مادة غريزية، وتحتاج هذه الغريزة إلى لحظات التفريغ بداخلنا لنهدأ .

إن منطق الحب لا يعرف سبيلا للكراهية، وحيث يفرغ القلب من الحب فبم إذًا يُملأ؟ إن حضارات الأمم قد بنيت على الحب المتبادل، واستبعاد الكراهية، وإن لبنة الحب بين الأفراد تختلف فيما بينها، فهل هناك بديل للحب. إن الكلمات تعرف بضاداتها، وإن العيون قد ترى ما لا ترغبه القلوب، فيضطرب القلب ويشبع وجعا، فنصاب بمنطق خيبة الحب المزعوم، ودعونى أتساءل هل الحب يحيا إلى الأبد أم لكونه غريزة تنتهى بعد انقضاء هذه الغريزة، أقول: إن مصداقية الحب تعنى استمرار وهجان القلب، وإن فتور الضوء فى الذكريات هو من يطفئ حرارة القلوب، وإن النسيان المجبر عليه أقوى من النسيان عند الانسحاب.

قد تمل الأذن من خاصية التكرار المستمر، فى تلقين الأذن مقطوعة واحدة، كأن اللسان لا يجيد موسيقى الحروف وتوزيع نوتة العلامات فى اوركسترا الفم بقيادة لسان استحر وانبرى، إن الحب يحتاج إلى عذب الكلمات، ومن الأفضل حين تمل الحروف فإن أجمل ما فى الحب هو صمت العيون، إن الحب الهش قد تقتله كلمات، ولكن الكلمات الرقيقة والصادقة، تُرغِبُ فى إشفاء غليل الحب المتصاعد، انها حالة من الغليان المستمر، ليعلن الحب استمراره.

للحب والبقاء فلسفات كثيرة، فالحب قد يبقى فى العيون وهى عاجزة فى أن تتحرك للأمام، إنها تتحرك فى اتجاهين والحب يحتاج التحرك فى كل الاتجاهات، إن أقوى الفلسفات هى ما تكتبه الذكريات المؤلمة كى نتعلم منها كيف نتجاوز المحن، إن الحب الولود الودود، يبقى للأبد حين يكون الصدق عنوانا، فالصراحة فى الحب وإن كانت مؤلمة إلا أنها فى النهاية تعكس خوف كل على الآخر، إن الحب الذى نخاف منه أو نهابه لهو حب لا يؤمن بأن حبات اللؤلؤ تزين صدور الصادقين.

إن من أصعب الأمور فى الحياة عدم القدرة على مسح الذاكرة المتلئة بالذكريات المؤلمة التى لا نرغب فى تكرارها، وان من القوة بمكان أن نمتلك ماسحات الألم الذى نختزنه بداخلنا، إن القلوب التى تؤمن بقضيتها لا يمكن أن تتراجع، وإن القلوب التى تعتاد على البيع والشراء قلوب من الصعب أن تشترى مرة أخرى، فالقلب ليس للبيع، وقد يغلق للتحسينات، وتظل دقاته تنظر من يدق بابه ليدقق الاختيار السابق باختيار جديد .

إن من يعبث بالقلوب إنما يحصد دما فاسدا يتجرعه فى النهاية، إن الحب حين نتجرعه، نتعود على إدمانه، وهناك من الجرعات المميتة، فأصعب ما فى الإدمان زيادة الجرعة التى تؤدى للموت، إن القلب بداخله حائط الغفران والسماح وأن بوابة العبودية والقسوة للقلوب تغلق تلقائيا، فرفقا بالقوارير، لمن منحن أنفسهن لخدمة الكيان الكامل، لخدمة أمه، فإن استقامت العلاقة بين الرجل والمرأة استقامت حضارات الأمم، وإن انهيار الأمم تقبع فى إفساد العلاقة بين الطرفين، وهذا ما يخطط له الحاقدون .

إن الخادم الأمين على القلب من أى هزة المرأة التى تمنح، رمز العطاء الكامن، عطاء فى الرحم بظلمات ثلاث لطفلها، وعطاء فى إرضاعه، إنها تقتسم الحياة فيما بينها وبين الآخرين، تُقْتَسم بين الطفولة والرجولة لتبنى أمة قوية، إن المرأة هى العطاء وماعون الاحتواء، نعم ماعون الاحتواء فى طفولتنا ورجولتنا، وإن أى مجتمع بفقد ماعونه فهو كمن يفقد لبنا مسكوبا على الأرض لا قيمة له، إن الدنيا هى سجن كبير لا يعلن حكم الإفراج فيه غير المرأة القاضية، فهى إما عادلة ذات رأى صائب يتحمله الرجال أو إنها ذات لكمة قوية قاضية، تنهى حلبة الصراع وتتفكك معها دائرة الحياة لأنها خرجت من عباءتها، فبدت سوءة الدنيا واختلت.

إن المرأة التى تحب وتجاهد وتصمد وتصبر من أجل حبها وكيانها لهى امرأة الصمود، أما المرأة التى تحب نتيجة التعود أو مجرد اعتياد وجود رجل فى حياتها فقط هى امرأة لا تفهم معنى الحياة، وتتساوى عندها كل الرجال، إن القضية الكبرى إنه لا يدرك الكثير من النساء أو حتى الرجال دور كل منهم، فى البناء، إن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم، وهو سبحانه أعلم بعباده،

وكان من الممكن أن يخلق خلقا آخر يؤنس آدم وحدته إلا أنه سبحانه خلق له أجمل مخلوق فى الوجود فخلق المرأة، وخلق بينهما الحب والمودة والرحمة، وإن من لا يفهم طبيعة المرأة لا يستطيع التعامل معها، إنها كنز لمن يحتويها، وبئر عميق قد ينتهى بالغرق لمن لا يجيد فى أعماقها السباحة، وأكاد أجزم أنه من الصعب ذلك .

المقال السادس
الحب فى العقول أم فى القلوب ؟

سؤال يبحث عن إجابة، هل الحب فى العقل أم فى القلب؟ فالحياة تجملت بحواء فنشأت علاقة الحب مع آدم ليؤنس وحدته، وكانت هى العطية التى وهبت لآدم، وما أجملها من هدية، لقد نشأت علاقة الحب الغريزى الفطرى فكان حبا بعطاء لا حدود له وبلا انتظار مقابل. فالحب بين الرجل والمرأة غريزى يختلف عن حب آخر بين الرجل وبين أى شخص له علاقة بالرجل من أم أو ابنة أو ابن أو صديق، فالحب الغريزى يسكن فى العقل الذى يخزن الذكريات والانفعالات من كره أو حب، وإن صندوق الذكريات بالعقل هو ما يقوم ليذكرنا بوديعة الحب المسيطرة على العقل، وهو مؤشر الحب المدفون بكل آلامه وأفراحه، إذن فما علاقة القلب بالحب، قد يتعجب البعض إذا قلت ان القلب ليس له أى علاقة بالحب، لأنه مخزن فى العقل وذكريات المواقف والتى ترسل إشاراتها للقلب كأداة من مظاهر الحب، فتزداد دقات القلب وانفعالاته ويخفق، فالقلب ما هو إلا انفعال عقلى فى صندوق العقل فأنت تحب بعقلك ولا تحب بقلبك، لأن العقل يذكرك فتفكر فيه فتزداد دقات قلبك كرد فعل استجابة لما فى العقل من سجل الذكرى. فالحب هو الذى يسيطر على العقل وليس القلب، فالقلب انفعال شرطى للحب المسيطر غريزيا على عقولنا، وكم من محب حاول أن يبتعد، فيتذكر حبه بعقله فيضطرب قلبه وتختلف دورته الدموية ويزداد الخفقان. إن هذا القلب بداخله عقل من نوع آخر يمثل امتدادا للعقل الأصلى. **{أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور}. سورة الحج ٤٦**. فإذا كان الحب فى العقل فهو يرسل إشاراته للعقل المشابهة له فينقبض وينبسط، وتبدو عليه المشاعر ومن ثم التصرفات، إن

الإنسان يمكن ان يعيش بدون عقل، فكيف يحب؟ انه يحب فى شبيه عقل القلب ويستمر ولكن لا يعش الإنسان دون عقل القلب، وإذا قمنا برسم خريطة عصبية لكلا من العقل والقلب لوجدناهما متطابقين وهو ما يؤكد أن للقلب عقلا وإلا لما كان الحديث لرسول الله استفت قلبك دليل على عقل القلب الذى يدرك، فالحب فى العقل وعقل القلب وليس فى القلب العضو العضلى الذى يشبه قبضة اليد، وهذا يعنى أن القلب عقل ولكن من النوع الانفعالى والقلب كذلك يرى، **{ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور} الحج ٤٦**.

والذى اطرحه ان هذا العضو العضلى المنفعل من الحب المخزون فى العقل لم قسم إلى أربعة أجزاء من أذينين وبطينين، وهذا سنجيب عنه فى الحلقة القادمة، وان هذه الصفة يتميز بها الإنسان عن قلوب الكائنات الأخرى فلم هذا التميز؟!

المقال السابع
الحب فى القلوب أم فى العقول؟

رحله داخل الغرف الأربعة.

وأى غرفة ترغب أن تسكن؟

فى الأسبوع الماضى قد طرحت سؤالا: لم قسم القلب إلى أربع غرف؟ وهل هناك دلالة على هذا التقسيم، وواقع الأمر انه لم يخلق شيء فى الأرض ولا فى السماء إلا لحكمة والحكمة لمن، لقد سبق وأن تحدثت على الأنوار التى تضاء داخل عقلنا من استقبالنا للأمور والمعرفة، ولنطرح على أنفسنا سؤالا، حين يقول المولى عز وجل، **{وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}**، **(الذاريات:٢١)**. فماذا بداخلنا حتى نبصر؟ لنعد سريعا وقبل أن نتكلم عن غرف القلب أو سكناه ومن يحتل الغرف الأربعة ولماذا، قبل هذا كله يحب أن نوضح بعضا من الأمور، منها، ما يجول فى الخاطر أو ما يكون فيه من همس القلوب، إذا ما شعرت بالهمس أو ما يخطر بقلبك أو حين تسمع همسا كأنه يقول لك هناك من هو خلفك، فماذا تفعل؟ الطبيعى أن تتحرك لتنظر من هو ذاك الشيء، عندئذ تكون قد وصلت لهياج رغبة أو ما يعرف بالحركة أو بميل الطبع، أى ما تحدث به نفسك، والنتيجة الطبيعية بعد همس القلب وتحركه ان يأتى حكم القلب إما للمثول للهمس أو العدول عن ذلك، فإن الطبع إذا مال إلى أمر ما ولم يمنعه خوف الالتفات ونتيجته تكون حسب الاعتقاد، فهو إما مبنى على العقل وهو يتبع الخاطر والميل، ولكن يكمن جذره فى القلب ويمده بكثير من غذاء ويسيطر على عقله، وبالتالى يحدث الفعل بالنية قصدا، ومن هنا يكون لدينا الهمس والخاطر والاعتقاد والهم، **{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِۦ}**، (يوسف: ٢٤)، فالهمس والخاطر بحديث النفس لا يؤخذ به، والاعتقاد غالبا ما يأخذ صفة الترددية، وأما الهم فهو مؤاخذ به لأنه من الفعل القائم على

الهمس والخاطر والاعتقاد، والسؤال هل همة فعل القلب اختيارى، نعم انه اختيارى لان الخواطر وحديث النفس وهياج الرغبة لا يدخل تحت الاختيار، فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق، {لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.(البقرة: ٢٨٤).

إن القلب لهو هدف مصاب يتأثر من الإصابة من جانب إلى جانب آخر فيتغير القلب، وإذا نظرنا للقلب فللقلب صفة ونوع، فصفة القلب إما قلب مطمئن أو قلب مخذول، {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) - }.(الفرقان: ٤٣-٤٤).

أما قلب خواطر الهوى، فهو القلب الذى يكون دخان الهوى يطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان، إن خزائن الغيب تقع فى قلوب البشر، ولا يعلم البشر عن قلوبهم من هم ساكنيها، ولكن علينا أن نعلم أن الإثم حواز القلب، وأن البر (بكسر الباء) ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وإن أفتوك، وإن شر البلية فى الوسوسة التى تحرك الخاطر فتدخل بنا إلى مرحلة الاعتقاد ومن ثم الهم، وبالتالى فالوسواس يقوم بالتلبيس، ويحرك القوة، ويدخل مرحلة الخاطر، ويتوقف قدرته على نوع القلب إن كان منكوسا، أى مقلوبا أو مطبوعا أى مختوما بالدنس، أو أزهر أى مستنير، أو أجرد أى لا يتعلق بالدنيا. فكيف تتعلق القلوب بالغير وما عنوان الغير فى القلب، هل لكل قلب منا شفرة تلتقى مع الآخر، وهل يمر القلب بمراحله الرباعية ليقف فقط، عند الهمس، أم عند الخاطر، أم الاعتقاد أم إلى الهم الكامل، وكم من العدد يملأ القلب غرفه؟ وصفته، ونوعه.

إن هناك أمرين عظيمين فى البشر ألا وهما الغضب والشهوة، ويقف أمامهما الإيمان بقوة، فكما هو معروف أن الإيمان إما إيمان العوام أو إيمان المتكلمين من نوع الاستدلال على صوت المتكلم وإيمان العارفين كالمشاهدين باليقين، ونعود الآن إلى الخيار، أى غرفة نختار وآى سكن نرغب ومن يسكن غرف القلب؟

المقال الثامن
الحب فى القلب أم فى العقل (الجزء الأخير)

كم دقة يدق قلبك، كم يتعالى منه صخبك، كم يرتفع شوقا غلف قلبك، ما هذا العضو الغامض، المتوتر، على أوتار الذكرى؟ حين يعاود قراءة الذكرى فى شوق، فتتحرك أوتاره، وتتدفق دماؤه، فيا لسر القلب فى وعائه.

إن قراءة القلب لهى من أسرار كل شخص، ومن الصعب أن يعلن عنها، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، القلب إما به سعادة ترتجف يتبعها خفقان، أو قلب به اضطراب يتبعه كآبة، وبين السعادة والكآبة أمر عظيم، فلم هذا، ولم ذاك؟ لقد سبق وأن ذكرت فى الحلقات السابقة أن الحب فى العقل وليس فى القلب، وأن ما يحدث للقلب ما هو إلا انفعال ناتج عن ذكريات فى صندوق الذكريات العقلى، وضغوط الذكريات داخل هذا العقل، فإنه يجعل وسادة العقل ينام عليها الحب فإما وسادة حريرية ينعم بها القلب فى دقات الفرح بما فيها من ذكريات ناعمة، أو وسادة خشنة مؤلمة تحمل بداخلها ذكريات مشوهة أو مضطربة، فيزداد الحزن داخل القلوب، ولربما يكون حزنا لفراق، ايا كان الفراق سواء بالموت، أو بنهاية ذكرى لم تكتمل فصولها، من قصور أيادينا، التى قد تضل طريقها، لأنها لا تعلم ماذا نريد، فتتعارض بداخلنا الهوية الذاتية فى ضبط آلية التيقظ، لقد تحدثت عن المراحل الثلاثة من الهمس، وهياج النفس، والاعتقاد وهى التى تسبق الهم، **{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ -}**.(يوسف: ٢٤)، والهم هو المقاربة من الفعل من غير الدخول فيه، وهذا الحب الغريزى حين يصل إلى شغافه اى دخل وتغلغل داخل جلدة القلب، ليتمكن من القلب، قد شغفها حبا، فيدخل داخلنا، خلف الحدود الذاتية، ونتيجة الذكريات فى العقل من أثر

تلامس الحب لشغاف القلب فإن الذكرى الضاغطة على العقل تسبب الانهيار المفاجئ، لجزء من حدود الأنا الخاصة بنا، وهو ما يظهر حين ينهار الحب في مرحلة من المراحل وترغب الأنا في استعادة نفسها مرة أخرى، لأن الحب يسمح بدمج هويتين فيما بينهما مما يعتبر الانعتاق المفاجئ من الذات وانسحاب الكينونة برمتها من حدودها ثم الاندماج مع كينونة المحبوب وما يرافق ذلك في الانهيار لحدود الأنا من شعور الوحدة كانجذاب غريزي.

وهذا الوقوع في الحب ليس فعلا إراديا، وليس اختياريا، وان كان اختيارا، لتحكم القلب في دقاته، ولكن هناك قوة أخرى قهرية تتحكم بذلك، فالحب فيه مشقة كبيرة ومعاناة، قد ترافق ضبط النفس السابق للأنا في هوية الذات لتستعيد قدرتها مرة أخرى، بناء على مفهوم انهيار الأنا المفاجئ، وخروجها للاندماج، والحب لا يحمل في طياته اتساعا داخليا، أو تمددا لحدود الأنا بل هو اتهيار مؤقت لجزء من تلك الحدود، وإن استعاضة الجزء من الذات لن يتم بغير استعادة الحب مرة أخرى أو الدخول في حب جديد ومقارن مع سابقة ليتم اختيار التوازن، ويكون أيضا من وسادة العقل، إن الحب بين الرجل والمرأة يختلف عن أنواع الحب الأخرى، فهو حب غريزي مؤداه اكتمال سكن الذات في غرف القلب الأربع، «خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها»، إنها السكن وما يحمله من معنى شامل، فالحب غير المنتهى بالزواج هو حب مبتور أو محكوم عليه بالبتر، ويصبح بتره علامة مؤلمة إذا ما ضيع في أعباء سكناه والصدق فيه أمر ضروري، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وكم ضاع سكن من حب لمتطلبات مادية، أكثر من متطلبات الراحة النفسية لقصور المفهوم في القناعة الذاتية بما نرضى نحن.فليسكن الحب في غرف القلب بالقناعة في حلى من الوداعة لا في زخرف قول ينتهي في ساعة، ونعاود السؤال، لم نترك سكنا، يكتمل مع الأيام، ولماذا نحمل بداخلنا كل هذه الآلام، فاسكن القلب في غرفة حبه، واعلم أن السكن قدرة واستطاعة، ما يغير في قدرته غير القناعة، وهدوء النفس، فالعصفور يكفيه بيت من قشه ليبنيه، والطير غصن يؤويه، وأما الإنسان ماذا لقلبه ليسكنه ويكفيه؟!